الايمان بالعربية

بقلم الحسن السائح
رئيس مصلحة التعليم الأصلي

هناك واقعيات مسلمات لا سبيل لرفضها ، بل لا سبيل لمناقشتها دون أن تكتسي هذه المناقشة صبغة خالية من كل أسس الموضوعية والايجابية ، وهذه **الواقعيات هي :**

أولا – (المغرب بلاد عربية) عربية جنسا وقومية وتفكيرا ، ولغة وتاريخا وعقيدة ومعركة وكفاحا أيضا.

ثانيا – المغرب خرج من معركة الكفاح ضد الاستعمار ، **الاستعمار** الذي لم نعرف خطورته بدقة حتى حطمنا أغلاله ، وان من يتغشاه ضباب السهول لا يعرف ضباب السهول ، حتى يشرف عليه من القمة ، ان للاستعمار مخططا خطيرا ، وأخطبوط زحف لمحقنا ، وما يزال ؟ فاذا حطمنا الاغلال الحديدية فان افكارنا ما تزال موثقة ، وان السنتنا ما تزال لم تحل عقدتها .. وانه سيربط اقتصادنا بعجلاته .

ولنخرج من منطقة الاستعمار ... ولنحيا ولنعيش لا بد لنا من السير في طريق بناء نهضة ، وفي خلق مستقبل مقدود من واقعنا . فكيف السبيل الى ذلك ؟

لا بد من مكافحة الاستعمار بسلاحه أي بالدراسة العلمية الصحيحة الحديثة وبالاطر الفنية والادارية والصناعية وبالانتاج الذي يحمينا من الاسواق الخارجية.

وفي هذه المجالات تكمن المشكلة ! أو ما يمكن ان يسمى بالمشكلة ، فهل نسير مع العواطف والتاريخ والامجاد فنستعمل لغتنا للبناء ، أم نسير مع البناء والتصنيع والمستقبل ، فنأخذ لغة الغير العلمية للبناء . وهنا أيضا تبرز المغالطات .

هذه المغالطات (المشكورة) التي جعلتنا نفكر باستقامة ومنطق في الموضوع، لندحض المغالطات، وبالتالي لندحض المشكلة ذلك اننا لن نتنازل عن واقعيتنا، لان التنازل عنها معناه محق معالم شخصيتنا وجعلنا فريسة سهلة الهضم في فم الاستعمار الذي خلق المشكلة وربط العقد . وأثار المغالطات وان مغالطات الاستعمار ومحاولاته للتضليل ليست موجهة الى اللغة الا باعتبارها مفتاح حضارتنا وتاريخنا وشخصيتنا .

فالاستعمار اعتدى على الضمائر ، واعتدى على الملكيات ، واعتدى على العقائد ، فكان الراهب يبشر ثم يأتي بعده التاجر ليقامر ، ثم ياتي بعده الجندي ليحتل ثم ياتي السفير ليمثل، وأخيرا يصل المعلم ليتم المأمورية التي لا تنتهي في حلقاتها المستديرة ؟ من تعليم أولي الى تخصص الى فنيات .. الخ الخ .

كانت مهمة الاول احداث الفراغ العقائدي ، ومهمة الثاني احداث الفراغ الاقتصادي ، ومهمة الثالث احداث الفراغ العسكري ، ومهمة الرابع احداث الفراغ السياسي ، ومهمة الاخير أي المعلم محو اللغة القومية وتعطيل الفكر ثم تكوين (بوفارية ايديولوجية) . فمهمة المعلم هي أهم وأخطر ، هدفها مقاومة التعليم المحلي واغلاق المدارس واطفاء نور المساجد ليلا لئلا يلتقي المومنون بعقيدتهم ولسانهم وتاريخهم الممتلىء بثقافة ولو كانت منحطة خشية أن تدب فيها الحياة ، تلك الثقافة التي لم تكن منحطة ، وانما هي بقية روح في جسم معذب ؟

ويتعاون السيف والقلم الاستعماريان، السيف لخنق الثقافة المحلية أو لقتل الروح في الامة بعد احتلالها والقلم لملء الفراغ وأداء المهمة التمدنية التي ما نزال نعاني الكثير منها ..؟ وستزيد مضاعفتها ان لم نكافح بايمان في معركة التعريب .

واذا كان للمستعمر مغالطات فله جهالات بالبديهيات لان المغالط لا بد أن يغلط ؟

اذ الثقافة لا تموت أبدا ومن السهل أن نتكلم بلغتنا مهما كانت مهلهلة لنحقق أفكارا عميقة في نفوسنا ولنعرف بسهولة اننا عندما نتكلم أو نفكر أو نعمل في جو المستعمرين وبلغتهم تكون أجانب .

إن المستعمرين في مغالطتهم زوروا حتى الحقائق التي تبقى على معالم شخصنا التاريخية واللغوية ؟

فهل يجوز عقلا أن تكون أمة بغير لغة عاشت آمادا كثيرة بفيض حضارتها العلمية ، أو أن تكون هذه اللغة لا تستطيع أن تعيش من جديد بعد أن حاصرها أعداؤها قرونا من الزمان . لقد هدف أعداء اللغة العربية الى احتلال بلادنا أو اقتصادنا ، وهدفوا قبل كل ذلك أو بعد كل ذلك الى قتل لغتنا ليحولوا بيننا وبين تاريخنا وبذلك نصبح أمة بدون تاريخ نرجع اليه ، ونتجه الى امداداته وفيضه . انه لا يجوز عقلا ان تكون أمة بدون تاريخ لغوي .. وهذه مغالطة خطيرة من مكائده ، لا يوازيها في مغالطاته الا موقفه من تاريخنا الحضاري الذي يعتبر بدايته يوم أن روعنا بمدافعه . فهل يجوز أن يقسم التاريخ الى مرحلتين : ماقبل الاستعمار ويسميها عصور الجهالة بما فيها من عصور مقاومة الرومان والوندال والبيزنطيين وعصر الادارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين ، أي يوم قاومنا أعظم امبراطورية رومانية فحطمنا كبرياءها على يد حنبعل ويوم أصبحت افريقيا الشمالية والاندلس موحدين تحت قيادة المرابطين والموحدين ويوم كان الاساتذة المغاربة يعلمون بايطاليا وسويسرا وفرنسا أقول هل يجوز أن نقسم التاريخ الى مرحلتين المرحلة الاولى هي مرحلة عزنا ومع ذلك لا نجد محلها في (السكولاتيك التاريخي) بل يحرص على تسميتها عصور الجهالة . ويقابل بها عصر المدنية والنور يوم استعبدنا وأفقدنا قوتنا ولساننا وتفكيرنا واقتصادنا وقيادتنا فانكمشنا على أنفسنا مقوقعين في حدود ضيقة فرضت علينا .. ثم سلب حتى ماضينا اللغوي وحاضرنا اللغوي فأصبحنا أمة خرساء وبدون تاريخ .

ان الحقائق لا تموت أبدا ... فمن هذه الحقائق ومن هذا التاريخ ؟ ومن حضارتنا سنستمد القوة لنتحرك من جديد طبعا بعد القضاء على المغالطات وحل المشاكل وتفتيت النفايات .

واذن فلا بد من الاحتفاظ بلغتنا وحضارتنا وتاريخنا ، ونحن نتساءل الآن هل تستطيع لغتنا أن تبعد عنا شبح الاستعمار بعد ان اصبحت هي الامل الوحيد لمقاومته . هل في استطاعتها ان تصبح لغة علمية كاللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية مثلا ؟

وهنا يجب أن نتجنب العاطفة ، وهنا يجب أن نكون رياضيين في منهج البحث لا مؤرخين ولا مناطقة .

أقول أولا نعم ـ ولكن بشروط ، والشرط الضروري للتعريب هو الايمان به وقبل ذكر الشروط الاساسية الاخرى يجب أن تقسم مناطق التعريب ، الى تعريب التعليم ، وتعريب الادارة ، وتعريب الفكر ، أما عن التعليم فهناك سؤالان : (الاول) هل نستطيع التعريب دون خفض المستوى العلمي ، (ثانيا) هل نستطيع أن ندرس العربية ثم يمكن لطلابنا أن يتابعوا التخصص العلمي بلغة أخرى ما دمنا في حاجة الى الاستزادة من ثقافة الغرب . أما عن السؤال الاول فالتعريب ممكن وواجب ولن ينخفض المستوى بشرط أن يكون بيد القلوب المشفقة المومنة والعقلية المتوثبة التي لا تخاف ولا تعرف الجمود ، واكبر شوك يضعه المتشككون في طريق التعريب هو الحرص على عدم المزاوجة في التعريب ونضج اللغة ، يعني أن نبدأ بعملية تطوير اللغة وخدمتها في مصانع (المجامع العلمية) قبل اخراجها الى ميدان التطبيق . وهذا تماما كمن يقول بوجوب منع الاطفال من الذهاب إلى المدرسة حتى يتم تكوين اللغة وتطويرها وهذا خطأ ، لان اللغة كائن حي يتطور في عقلية الطفل وينمو في رحبات فكره .

ان العربية اذا جاز اتهامها بالنقص ، فهذه التهمة قد توجه لميدان البحث العلمي أما في ميدان التعليم ، ابتدائه وثانويه وعالية ، والادارات فقد جربت وبرهنت عن مقدرة ... وسوف تكون قوية في البحث العلمي

ايضا اذا آمنا بالعربية ونفضنا عن عقلنا هذا الكسل الثقيل ، وهذه الاذن التى نصغى بها لنصائح أعداء اللغة العربية ، وآية ذلك أن اللغة اليابانية أصبحت لغة علمية ولم تكن كذلك من قبل ، وان اللغة الغاليليكية لغة ارلندا أصبحت علمية بعد مهاجمة الانجليزية المستعمرة ، وان اللغات المتعددة الموجودة فى ولايات الاتحاد السوفياتى أصبحت لغات علمية حية ، وان اللغة العبرية وهى ابنة عم اللغة العربية أصبحت علمية ايضا ... (واللغة العربية وحدها)هى التى لا تستطيع التطوير بينما هى تمد اللغة العبرية بالكلمات والاصطلاحات .

هذه صيحة استعمارية تجد آذانا مصغية من البوفرديين الايديولوجيين المتعشقين للغة من يتآمر على مصيرنا ، ان اللغة العربية هى متطورة وقادرة على أن تكون لغة حضارة ، بل كانت لغة حضارة وستصبح كذلك لغة حضارة أما الكافرون بها فهم مثل الذين كفروا بالاستقلال فجاء الاستقلال ، على أننا نسجل عليهم التقدم والتطور ايضا . فقد كانوا تقدميين فى عصرهم حيث كان معنى التقدمية الكفر باللغة العربية ، ثم تدرجوا الى الشك فى اللغة العربية بعد انتصار الشعب ضد الاستعمار السياسى ، وعسى الله أن يهديهم الى الايمان المطلق بالعربية .

أما الازدواجية بالمعنى المتمثل فى عدم وحدة اللغة والاخذ بتعلم اللغات ، فنحن أحرص الناس عليه والانسان لا يعرف لغته ما دام لا يعرف لغة غيره كما يقول جوته .

أما عن السؤال الثانى ، يعنى ان الدراسة بالعربية فى التعليم الاولى والابتدائى تحول دون متابعة الدراسة فى العالى بالجامعات الاجنبية ، ما دمنا فى حاجة الى تنمية التكوين العلمى للعقلية العربية .

فالجواب واضح لان الدراسة بالعربية سوف لا تخلو من وجود ساعات لتعليم اللغات الاجنبية ، وينطوى الجواب على توجيه نظرا لانطواء السؤال كذلك على توجيه .. لان التعليم اذا لم يكن بالعربية وكان بالفرنسية فقط فسوف لا يوجه الا لجامعات فرنسا .. فقط ، ثم اننا لا يمكن أن نلتفت الى الاقلية وننسى الاغلبية على أن هذه مرحلة مؤقتة ويمكن علاجها بعدة وسائل .

لقد كنت أتكلم عن ايمانى بعروبتى ووجوب تركيز هذا الايمان مهما كانت الصعوبات واننا جميعا نرتطم بمشاكل التعريب فيجب أن نذلل العقبات مهما كانت عاتية لان من مرض ولده فعليه أن يلتمس له الدواء ولا يجوز عقلا ولا عاطفة أن نقتل اولادنا بدل أن يغير الدواء .

ان هناك صعوبات ، صعوبات الاطارات . اذ يجب ان نفكر مع الفنيين لا ان نضع لهم المشاكل فنلقى الخطب والكلمات ثم ننسى كل شىء ؟ فلذلك يجب التفكير جديا وجماعيا لمعالجة تكوين الاطارات .. ان العبء ثقيل جدا فلا نضعه على وزارة واحدة بل على مصلحة واحدة فى الوزارة بل على موظف واحد مسؤول ثم نقف متفرجين منتظرين ساعة النصر او ساعة الانهزام فقد دلت التجربة على وجوب التفكير فى قضية الاطر لتكون مغربية صميمة لا مستوردة ولا مأجورة كما دلت التجربة على وجوب رعاية الوحدة فى الاطر فى الابتدائى الى الثانوى ـ الى العالى ـ فى العلوم الانسانية والعلوم الرياضية .

أما باقى قطاعات التعريب الاخرى ، فهى لا تخضع لشروط قاسية ، وليس هناك تخوفات على الاطلاق اذا عرب التعليم تعريبا سليما .

هناك صعوبات كوحدة الكلمة العلمية وتوزيعها بدقة على مختلف المراحل والكتاب المدرسى والعلمى فالتعليم الاجنبى قد تطور وتحسن وتنظم فيجب أن يكون تعليمنا على شاكلته ، والمسألة مسألة تفان فى العمل ، والكتاب المدرسى يكون فى بلادنا مشكلة . فهو غير منسق وغير مستوعب وغير موجه والذين ألفوا جلهم اخترف لبيع الكتاب ولم يؤلف . وجلهم لم يختص فى دراسة موضوعية بدقة وبذلك فقد استفادوا ماليا ولم يفيدوا امتهم ولو أدبيا بل أضروا بالتعريب والعربية وهكذا ينهزم التعريب فى مصالح (الاستغلال) وتقف الام المسكينة اللغة العربية فى قفص الاتهام .

لقد اثرت قضية الكتب لانها تشكل عنصرا من عناصر فشل تجربة جانب التعريب وتبدى مدى الخطورة الناجمة عن مشكل عدم التوجيه والمشاكل التى تعترض التعريب فى هذا النوع كثيرة فالاستاذ الذى ينعدم ضميره فلا يؤدى درسه بحماس ، والمعلم الذى ينام بجانب اطفال المدرسة الابرياء بينما الاستيانة

الاجنبية ترعى الاطفال فى حنان ورفق ، والمدير الذى يشعر أنه موظف فقط يتفرج من بعيد على سير الاحداث ويرفع كتفيه ازاء تساؤلات تلاميذه عن مستقبلهم وتقاليدهم ولغتهم ، بجانب المدير الذى يسهر على طلابه وتلامذته فى توجيه عميق لمصلحة بلادهم ... وكذلك المصالح التى ترفض الرسائل اذا كتبت بلغة العرب وتتهمها بعدم الوضوح بجانب الرسالة المقدسة المحترمة المكتوبة من اليسار الى اليمين .

كل هذه الصعوبات تواجه التعريب ، وتهلهل الايمان بالتعريب .

هذه مشاكل وصعوبات ومغالطات تثيرها قضية الايمان باللغة العربية أما المشكل الحق الذى تواجهه اللغة ، فان المكتب الدائم للتعريب يضطلع مع المجامع اللغوية بمهمة العمل لايجاد الحلول المناسبة له .

وخدمات المجامع تثمر اذا وجدت المجال المؤمن بها ، فعلينا ان نثق بحقيقة حضارتنا قبل الايمان بالازدواج الحضارى . فهناك حضارتان ، الحضارة العالمية التى تكشف عن معنى زمانى هو التجمع والتقدم وحضارة محلية تعتمد على الابداع ، ولاجل خلق حضارتنا الشعبية لا بد من أداتها اللغوية لان تفككها يعنى الفراغ وبالتالى تحل محلها لغة أخرى بطريقة لا شعورية .

فاللغة أداة الفكر ولا بد من اعتمادها على المناخ الفكرى لاداء المعانى الحضارية اذ ان الحضارة والمدنية ، والثقافة ، لا بد لها من الاداة ، وان المقومات الثقافية لاى شعب من الشعوب تتمثل فى اللغة التى تستوعب ألفاظها ومدلولات كلماتها والعبارات والامثال المستعملة فيها القيم العليا وقضايا المعرفة . وهذه القيم وهاته القضايا هى التى توجه الافراد وتحدد علاقة بعضهم ببعض كما تحدد علاقتهم بالمجتمع ، سواء المجتمع القومى أو المجتمع الانسانى .

ان حضارتنا وليدة لغتنا ، ولغتنا وليدة حضارتنا وحضارتنا هدفت الى الخير والسلام فعلينا أن ندعم هذا السلام ولن تكون حضارتنا بغير لغة .

وأنا أعتقد أن هناك تباينا فى حضارتنا العربية والحضارة الغربية اليوم .

اذا ألقينا النظر على المستوى الثقافى وحاولنا البحث عن قيمة الحضارة وجوانبها الفكرية والروحية والمادية .

واذا كان هناك تباين اليوم فسينعدم ، بل هو ظاهرة لا تخيف ومن حقنا الا تشغلنا اللغة العربية عن نسيان النهوض بالثقافة العربية والحضارة العربية أيضا ، وهذا ما يثير عدة قضايا أهمها كون لغتنا ستصبح لغة الثقافة والحضارة .

اننا نهتم باصلاح اللغة العربية حقا دون أن نتساءل عن اصلاحات أخرى ، فيجب الا ننسى اصلاح الفكر العربى والثقافة العربية اذ اننا لا ننكر أبدا أن انتصار الثقافة العربية يرجع لانتصار اللغة العربية ولكنه انتصار معركة فهل تستطيع الثقافة العربية أن تهاجم من جديد فتنتصر .؟

واننا نومن بلغتنا ونعتز بعظمتها ونحارب أعداءها من أنصار الانسلاب الثقافى لاننا سنسعى دائما الى تطويرها انبعاثها الذى هو انبعاث لثقافتنا .

ان اللغة العربية تسير الى مصيرها الحتمى وهو التطور والوضوح والتقارب مع اللغة العامية تلك اللغة التى لن تصبح أداة ثقافة الفكر او لغة الكتابة الواضحة لقصورها عن أداء الصور المجردة لانها لغة الحديث المختزلة السهلة لهذا يجب دائما أن توجه جهودنا للغة الفصحى قصد تبسيطها . ولا يمكن أن نتكهن متى يتم اكتمال اللغة العربية ، لان نقص الموضوعية والزمان فى عملية البحث يمنعنا من تحديد ذلك .

ان اللغة العربية تسير ولكن المؤسف أن ينقصها التوجيه وتكامل الكفاح ، وهى تسير الى التطور والتقدم لانها لغة حية ولغة ماض ، وان الذين تعتمد عليهم اللغة فى سيرها ليسوا اساتذة الجامعة ولا المحاضرين ولكنها تعتمد على التطور الطبيعى التلقائى والتطور التدريجى الماثل فى التعليم والكتاب والصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح .

واذا كنا نعتمد على التطور الطبيعى فاننا نعتمد كذلك على العلماء اللغويين الاخصائيين لمواجهة مشاكل العربية تلك المشاكل التى لا تحل نفسها بنفسها بل تحتاج إلى عملية .

فهناك مشكلة الحرف العربى مثلا .
وهناك مشكلة الطباعة .
وهناك مشكلة النحو والصرف المعقدين .
وهذه مشاكل يجب الا تخيفنا لانها مشاكل اللغات الحية .